الإسطبل

فوزية علوي

مطّ عبد الفتاح شفتيه وهو ينظر إلى الطّبق في شيء من الرّيبة، ثم قال:

ـ من أدرانا أنّ هذا اللّحم المُعلَّب قد ذُبح وفْق الطريقة السّليمة؟

يواصل أخوه معالجة المسمار الذي برز من الطّاولة وهو يقول:

ـ الذنب ليس ذنبك، لذلك كُلْ وأنت مرتاح البال. ثمّ إنّ الفتاوي قَدْ تَطوّرت ويُمْكِنُك أن تسأل الكومبيوتر في ذلك.

عبد الفتاح لا يجشّم نفسه مشقّةَ الردّ، فيُعرض عن الطّبق نهائياً وينشغل بقضم قطع البطاطا المقليّة وشرائح القثاء والخردل.

تدخل «زازا» بطبق الفاصوليا وتضعه في تبرّم وتمضي.

يستوقِفها عبد الفتاح وهي عند العتبة، يسألها في تحبّب ماكر عن القهوة أو الشاي.

ترد بإيماءة من رأسها علامةً على القبول، وتغادر بردف مترهّل وساقين متعبتين وضفيرة نحيلة غزاها الشّيب.

تهبّ ريح فتحرّك جوَّ الغرفة الرّطبة وتسقط صورةٌ لفريق كرة قدم ظلّتْ طويلاً مشدودةً إلى الجدار من جهة واحدة بشريط لصّاق. يهرع عبد الفتاح إليها وهو يصيح متشائماً:

ـ ألا يكفيك القسم الشرقيّ؟ أتريد النزول إلى الحضيض؟

طائر الكَنَالُو الحزين أنعشه الهواء فبدأ يبعث صفيراً شجيّاً وعنّ له أن يَتَعَلّق من قدميه في قضيب من قضبان القفص كأنما أعجبه أن يرى الدنيا بالمقلوب.

أُصُصُ الحَبق الموضوعة في النّافذة لَذّ لها هي الأخرى أن تَرُدَّ على الرّيح بعطر خجول يَتَوقّفُ له أخو عبد الفتّاح عن معالجة المسمار فيتشربه بكلّ مسامّه متلذّذاً وهو يقول:

ـ الجميل لدى النّباتات والطبيعة عامة أنها لا تحفل بالكوارث. لو درى الحبق ما نحن فيه من ويلات لشرب عطره وأقسم أن يفوح برائحة الجيَف. أمّا الكنالو فلا أراه إلاّ شاعراً بنكبات الخلق... أتحبُّ العصافير يا عبد الفتاح؟

عبد الفتاح يَقْبلُ السّؤال مستاءً وهو غير قادر على التفريق بين جدّ أخيه وهزله فيجيبه في لهجة محايدة:

ـ ولماذا لا أحبّها وهي مخلوقات مسالمة؟ لو قُدّر للإنسان أن يتدخّل في الغيب لطلبتُ من الله أن يخصّص الجنّة للعصافير... ثمّ من أدراك أنت أن النبات لا يشعر بالكوارث؟!

فيردّ الأخ الصغير:

ـ ما خِلْتكَ بِمثل هذا العُمق في التفكير يا فيلسوف العصافير.

ينجح أخو عبد الفتّاح في اقتلاع المسمار من الطاولة، يطيل النظر إلى طرفه المدبّب ويقول:

ـ المسامير هي المسامير. لا أرى أنّها تطوّرت على مرّ السنين، ألا توافقني؟

عبد الفتاح لا يجيب، ينشغل بإلصاق صورة الفريق التي أسقطتها الريحُ. يعترضه عشّ عنكبوت في الزاوية فيفكر في إزالته. ينفخ عليه بشدّة ثمّ يعيد مسح المكان بيده. يفاجأ بثقب صغير في الحائط بدا له أنّ النور يتخلله. تساءل عن المدّة التي قضاها العنكبوت في هذا المكان فجعله لا يتفطّن إلى هذا الثقب. طلب من أخيه أن يقرّب له الطّاولة حتى يعتليها. لكنّ ارتفاعها لمْ يكن كافياً ليضع عينه على الثقب، فأضاف كرسيّاً ثم صعد فوقه.

زازا تدخل بطبق الشاي، ابتهجت الأسارير والقلوب يقتلها الصّقيع، والعنكبوت مدعوك الجثة. يهبّ الأخ الأصغر إلى زازا، يقبّلها ويجاملها بكلمات طيّبة. وجهها سلبيّ جداً لا ينمّ عن شعور بعينه، تُعلم الأخوين أنّ السُّكّر قد نفد وأنها ستذهب إلى خديجة لتعينها في نسج البطّانية. لا يجيبها أحد.

عبد الفتاح مازال فوق الكرسيّ وعينه على الثُّقب، يُخبره أخوه أنّ الشّاي حضر لكنّه لا يهتمّ.

يمضي وقت قصير... يسأل عبد الفتاح أخاه دون أن يبعد عينه عن الثقب:

ـ هل يوجد قربنا إسطبل؟

ينفجر الأخ الأصغر ضاحكاً حتّى يتطاير نُثار الشاي على وجهه وقميصه فيهبّ ساخطاً لاعناً، لكن الضّحك يعاوده من جديد.

ـ تقول إسطبل؟ لا تنقصنا إلاّ الرُّؤى الحميرية هذا اليوم.

عبد الفتّاح يردّ هادئاً وعينه بَعْدُ على الثقب:

ـ أنا لا أمزح، ذكّرْني هل يشرف بيتنا من بعض جهاته على إسطبل؟

أخو عبد الفتاح يردّ وهو يضحك:

ـ دعني أتذكرْ.. بيتنا في شارع الهرم، وشارع الهرم كما تعلم حيّ تجاريّ، على يميننا مصنع لغزل القطن، وعلى يسارنا إسكافي، وأمامنا بيت خديجة وبائع غرابيل وحلاّق، ووراءنا ورشة نجارة ومدرسة، وفوقنا السّماوات السّبع، وتحتنا السّبع الأرضون ومساكن الجنّ وجهنم الحمراء، والله أعلم.

ـ إذن لا يوجد إسطبل؟

ـ إلاّ إذا تكلّمت على المجاز؛ إذاك فأنا أوافقك، فالخلق الّذين نجاورهم ونحاورهم هم إلى الحمير والبغال أقرب.

عبد الفتّاح ينصرف عن الثقب وهو يقول:

ـ سرّ المأساة في علاقتنا أنّك متواصل المزاح، وأنا أحسدك يا أبن أمّي على رحابة هذا البال، لكن أرجوك ساعدني على إيجاد هذا الإسطبل وخبِّرْني عن سرّ الثّقب ولماذا أخفاه العنكبوت عنا طيلة هذا الوقت.

أخو عبد الفتّاح ينصرف عن هزله ويعتلي الكرسي ثم يضع عينه على الثقب فيفاجأ بالمنظر العجيب:

حُمر مصطفة تمضغ في لامبالاة غريبة، وحزم التّبن توحي ببذخ حميريّ لا مراء فيه. يُقبل رجل باهت السّمت وهو يحمل سطلاً يطفح رغوةً وفرشاةً حمراء، فيمشّط جلود الأحمرة ويُريق عليها ماءً نقيّاً من أنبوب جلبه للغرض، فتنتعش الحُمر وتنتفض لتجفِّف شعرها.

يتمتم أخو عبد الفتّاح في دهشة:

ـ حُمُر مَنْ هذه؟ وأيّ مكان هذا؟ ثمّ ألا ترى عجباً في هيئة هذه الدواب وفي طريقة معاملتها؟

يتناوب الأخوان على التطلّع، وعندما تدخل زازا بإناء الخبز الّذي جلبته من دار خديجة يتظاهر عبد الفتاح بتنظيف السقف.

تستغرب المرأة وتهزّ كتفيها في استغراب ثم تقول وهي خارجة:

ـ هذا الحرّ الشّديد فَعَل فعله في الرّؤوس.

*

يقرر الأخوان القيام بجولة موسّعة في الحيّ أولاً ثم في الأحياء المجاورة عساهما يعثران على الإسطبل.

تجوّلا أوّلاً وهما يتثبتان في المحلات التي تقع شرقي المنزل وغربه ثم المحلات الشمالية والجنوبية.

أحصيا منازل عديدة ومسجديْن ومحلات بقالة ودكاكين لبيع الملابس القديمة وحانوتاً يبيع الخمر خفيةً وماخوراً ومحلاً لبيع العلف. وعندما شمّا رائحة التّبن توقّفا فرحين وحسبا أنّهما عثرا على الضالة.

لكن الدكّان كان صغيراً جدّاً وصاحبه محروق الوجه ولا وجود فيه لحمار واحد ولا يمت لمنزلهما بصلة.

سألا صاحب الدكّان عن زبائنه فأجاب بأنّهم كُثر ولا يذكر زبوناً بعينه. ولمّا سألاه عن كميّة التّبن التي يشتريها كلُّ زبون أجاب بأن زبائنه بؤساء وأن أترفهم يشتري حزمةً وكثيراً ما يشترك الاثنان في حزمة واحدة.

*

تعِبَ الأخوان من جولان التّيه، وعادا إلى البيت وقد يئسا من إيجاد إسطبل واحد.

وصار التَطلّع من الثّقب هو اللّعبة المفضّلة، ولم يعودا يشعران بالملل. وأخُبرتْ «زازا» بالأمر وصاروا يتناوبون على الصّعود فوق الكرسي والتمتع بمرأى الأحمرة وهي تأكل في ارتياح، وجلودها ناعمة، والقيِّم عليها يرتدي بذلة كزيّ العسكر ويمشي هادئاً متّزناً كأنّما يتعامل مع الملائكة.

وتفطّن عبد الفتاح يوماً إلى أحد الأحمرة وهو يراود أتاناً عن نفسها. كان يشخر جاحظ العينين، يدفع قائمتيه الأماميتين، يضعهما على ظهر الأتان، تصدّه وهي تمارس غنج الأحمرة، يَسقط، يعاود الكرة، يستقرّ على ظهرها، يبدأ لعبته.

«زازا» لا تقوى على هذا المشهد أمام أخويها، لذلك تتجاهل حديثهما وهما يتغامزان، لكنّها إذ تجد فرصة تضع الكرسيّ على الطّاولة وتنظر من الثقب وتتلذّذ. وصارت تدعو الجارات بين الفينة والأخرى للعبث وتبادل الكلام الماجن.

سرى أمر الاسطبل العجيب في الحارة. صار الناس يتوقفون عند الباب يسألون عبد الفتاح أو زازا ثمّ يمضون لشؤونهم وبعد ذلك صاروا يدخلون إلى السّقيفة. وسَمَحَ عبد الفتاح مرة لعليٍّ بائع اللّبن بمشاهدة الثقب، فخرج يلهج بالأتان المدلّلة ببذلة «الحوذي»، وأكّد أنّ هذا الإسطبل هو على ملك بعض الجان، وزاد متيقّناً:

ـ ألم تتفرّسوا في الرّجل، فكل ملامحه تدلّ على أنه «رهباني*»: شعره الأشقر، وجهه الأرقش، وعيناه الزرقاوان.

*

فكّر عبد الفتاح في استغلال الإسطبل سياحياً. دسَّ منْ يعلن في السوق عن فرجة عجيبة بمائة ملّيم. تقاطر بعضُ الفضوليين ودفعوا بتردّد، ثمّ رُفع المعلوم إلى نصف دينار وأتى مَنْ كان طامعاً في أن ينفتح الإسطبل عن كنز أو عن حمار يَرُوَث ذهباً.

صار عبد الفتاح يتلكّأ في فتح باب المنزل أحياناً، ويدّعي أن الأحمرة قد فسد مزاجها وأنّها عافت الأكل. وصار يخاف أن يتفطّن الجنّيّ إلى الأعين التي ترصده كلّ يوم، فيحرق المنزل بمن فيه.

واستغلت زازا الوفود المتدافعة فصارت تبيع الشاي وبعض مستحضرات الزّينة كالكُحل والسِّواك والأمشاط ومشدّات الشعر. وادّعت أنها تَسْمع بعض الأصوات النسائية في اللّيل وأنها تشمّ روائح المسك والعنبر. واستطاعت في ظرف وجيز أن تشتري قلادة من ذهب وتصلح نابها المكسّر.

*

* رُهباني، في اللهجة المحليّة التونسية: مخلوق شبيه بالجانّ كثيراً ما يسكن الآثار.

تضخّم الخبرُ كالدُمّل...

عبد الفتاح الحَجْري يتعامل مع الجانّ.

عبد الفتاح الحجري عميل للمخابرات الأمريكية.

عبد الفتاح لم يعد يذهب إلى عمله في مقطع الرّخام.. أمواله في ازدياد: وقد رفع المعلوم الى دينارين.

وعدَ العوانس بالزواج.

وعدَ العاطلين بالشّغل.

صار يستخبر عن المسروقات.

وعد الشجر العاقر بالثمر، والنّساء بالغلمان الحسان.

لم يعد يَسْمَحُ بالفرجة، قال إنّ الجان غاضب وأنه سيكفّ عن مساعدته إنِ استمرّ الناسُ في إزعاجه.

تزوّجت عانس بمحض الصدّفة وانهالت الخيرات على البيت.

«زازا» مَلُحَتْ وصَغُرت وصَبغتْ شعرها وكفّتْ عن الخروج العشوائي إلى الزُّقاق. خطبها شابٌّ صغير ووسيم وأهداها سواراً من ذهب...

الثقب حُجِب بستارة خضراء، وَوُضعت الشموعُ في أركان البيت، «وهذا من فضل ربّي» كُتبتْ بماءٍ مذهّب ووُضعتْ على ناصية البيت.

وصل الخبر إلى السُّلط المحليّة.

جاءت بعضُ الشخصيات المرموقة للاستطلاع.

عادت نساؤهم للتداوي من الحسد ولتحقيق السعادة الدّنيوية.

جاء مسؤول يطالب بدفع الأداءات عن المداخيل.

عبد الفتاح تلكّأ، وأخوه حاول أن يُسكت المسؤول عن طريق المال.

الأحمرة تُواصل أكلها الواهن، وأجسامُها تضخمت بشكل واضح كأن عبد الفتّاح يَعلفها ليلاً نهاراً.

*

صدر الأمرُ بإخلاء المنزل وهَدْمِ الجدار المشرف على الإسطبل.

البلدية وعدت بأن تنتقل الأسرة إلى منزل جديد وأن تتصرّف في المنزل القديم لأن الإسطبل بات من الأملاك العمومية.

عبد الفتّاح جُنّ جنونه، وتوعّد بأن يرفع الأمر إلى كبار المسؤولين في الجهة. وزازا زعقت وهرولت بردفيها الثقيلين، ولوّحت بساعديها المزوّقين بأساور الذّهب.

والأخ الصغير قال إنّ كارثة ستحلّ بالبلدة لَوْ هُدم الجدار؛ فالتحدّي لا يكون للجانّ.

وبَسْملت النساءُ واقشعرت جلودها، وتسلّح الرّجال بآيات الكرسي والحصن الحصين.

وجاءت الكاسحاتُ والعمّال، وأُسقط جدار الحوش أولاً، والنّاس شاخصون وقلوبهم واجفة، والبسملات تملأ المكان.

وجاء دور الجدار المشرف على الإسطبل، فسقط جزء صغير منه إثر الضربة الأولى وفغرت الأفواهُ دهشةً، والقلوبُ ارتفع وجيبها.

ضربة ثانية من الكاسحة، سقطَ جزءٌ أكبر، فجزء وجزء وحجرة حجرة وطوبةٌ طوبة. وانفتح الجدار عن فضاء شاسع لا أثر فيه لحمار أو تِبْنٍ أو حوذي.

تونس